

اشتغال خطاب الذاكرة في الرواية الجزائرية المعاصرة

– رواية زوج بغال لبومدين بلكبير أنموذجا –

The operation of the discourse of memory in the
contemporary Algerian novel

Boumediene Belkabir's novel A Pair of Mules is an
example

جعـيـدي محمد

Djaidi mohamed

mmedmoh.712@gmail.com

University of medea

زياني ابراهيم الخليل

Ziani ibrahim khalil

khalilziani1995 @gmail.com

University of medea

الملخص:

تشكل الذاكرة أحد أهم الروافد التي يتكئ عليها الأديب في إنتاج نصه، فهو يستحضر ذاكرة الأمة وتاريخها ويسائلهما، بغية تقديم السياقات الثقافية القديمة ، ومحاوله إعادة قراءتها في ضوء مستجدات الراهن، وبما أن التاريخ هو ذاكرة الأمة، وجزء من حاضرها، والحجر الأساس لمستقبلها، فحضوره في الأعمال الأدبية أمر لا تكاد تخلو منه أي رواية خاصة في العصر الحديث وما بعده، بسبب ظهور أزمات ومشاكل تتعلق بالهوية وتزييف الحقائق التاريخية، في هذا الصدد سنعمل على تفكيك أحد النصوص الجزائرية المعاصرة وهو رواية "زوج بغال" للروائي "بومدين بلكبير" محاولين كشف الآليات التي يشتغل عليها خطاب الذاكرة، وكذلك القنوات التي يستهدفها، ومدى نجاعة هذا الخطاب في تمرير الرسائل المستهدفة والمرغوبة.

الكلمات المفتاحية: الرواية المعاصرة؛ خطاب الذاكرة؛ بومدين بلكبير؛ الهوية؛ التاريخ.

Abstract

The memory constitutes one of the most important arrivals in the production of its text. s memory, history and questions, with a view to presenting ancient cultural contexts and trying to re-read it in the light of current developments, and since history is the memory of the nation His presence in literary works is hardly without any special novel in modern times and beyond, Because of the emergence of crises and problems related to identity and the falsification of historical facts, in this regard we will work to dismantle one of Algeria's contemporary texts, a novel "zoudj bghal" by the novelist **Boumedian Belkbir** trying to uncover the mechanisms on which the memory speech operates, as well as the channels he targets, and the effectiveness of this speech in passing targeted and desired messages.

Keywords: contemporary novel; Memory speech; Boumedian Belkbir; Identity; History.

مقدمة:

إنّ التّاريخ والذّكرة في خطاب الرواية الجزائرية المعاصرة يكتسي طابع الحساسية المفرطة لارتباطه بعدد القضايا التي تعدّ مصيرية ومرتبطة بهوية وكيونة الشعب الجزائري؛ فنحن شعب لم

يتمكّن بعد من التّخلص من رواسب الذاكرة، سواء كانت إيجابية أو سلبية، ويكاد يكتسي نفس الطّابع لدى الشعوب الأخرى، فكلّ من الذاكرة والتاريخ يعتبر مؤسسا لمفهوم الأمة، ومحددا لمعالم البنية الاجتماعية والثقافية والهوياتية لأيّ بلد، وعلى هذا الأساس فهما لا ينفكّان من الصّراع بين مختلف القوى التي تشغل في السّاحة السياسية بما يمنح لكل منهما الشرعية في تويّ السلطة، ولهذا نجدها دائما حاضرين في شتى مجالات الصراع المسيطر في الساحة الوطنية سواء كان (سياسيا، إيديولوجيا، ثقافيا، أدبيا.. وغيرها من الصراعات)

ونحن عندما نتحدّث عن الرواية الجزائرية المعاصرة فإننا لا نكاد نحصي رواية تخلو من خطابات التّاريخ والذاكرة ونحن بهذا لا نعني محدّدا للرواية كما في فترة الاستعمار وما بعدها (ما بعد الكولونيالية) والتي يتجلّى فيها المحمول الإيديولوجي لأشكال وتمثّلات الذاكرة والتاريخ بل تذهب لما هو أوغل منها زمنا كما في رواية " زوج بغال" للروائي الجزائري بومدين بلكبير الذي سنحاول من خلال استقراء روايته التي تتّسم بخصوصية استثمارها في طروحات سياسية وتبنى في أساسها على أزمة بين بلدين جارين، وفي خضم هذه الأزمة

تترحل بنا شخصية أصلها مغربي وحصل على الجنسية الجزائرية، لأنه شارك في حرب التحرير الجزائرية رفقة إخوته من الجزائر، وعاش في ثلاث مناطق مختلفة (وجدة، تلمسان، عنابة)، مرّ في كلّ منطقة منها بتجار ب كثيرة حاول من خلالها وضع القارئ في سكة مليئة بالذكريات التي ارتبطت بالفرد الجزائري والمغربي على اعتبار أنّهما يمتلكان تاريخا متشابها إلى حدّ بعيد، ومصيرا مشتركا، بعيدا عن الطرح السياسي الذي شاع تبنيه في الوقت الراهن على مستوى الخطاب الرسمي بين البلدين

وفي هذا السياق سنعمل على ضبط بعض المفاهيم المرتبطة بالدراسة كالذاكرة وأشكالها، وكذا ارتباطها بالمكوّن التاريخي ومنه الثقافي للفرد الجزائري، وبعدها سنفكّ خطاب رواية " زوج بغال " من منظور ثقافي، محاولين الإجابة على بعض التساؤلات:

- كيف يشتغل خطاب الذاكرة على مستوى النصّ السردي الجزائري المعاصر؟

- ماهي الدوافع التي تجعل معظم الروائيين الجزائريين المعاصرين يستثمرون في الموروث التاريخي والثقافي للمجتمع الجزائري؟

- إلى أيّ مدى نجح هذا الخطاب في تمرير الرسائل المرغوب إيصالها وبثّها لدى المتلقّي؟

للإجابة على هذه التساؤلات سنحاول تتبع الرواية محلّ الدّراسة باستعمال القراءة الثقافيّة مستعينين بما تتيحه لنا المناهج التّقديّة كالتّفكيك والتّأويل في تحميل كلّ خطاب ما يمكن أن يحمله من دلالات ومعان غير مصرّح بها.

1- مفاهيم وأنماط الذاكرة:

لا شكّ أن أول المعضلات والإشكالات الفلسفية قامت أساس على معالجة مواضيع لها ارتباط بمفهوم الذاكرة، فهذا هو ديكارت يطرح فرضيته الشهيرة " أنا أفكرّ إذا أنا موجود " يمكن أن تنبني عليه مقولة تربط بين التّفكير والوجود الإنسانيّ؛ أنا أتفكرّ إذن أنا موجود، حيث أنّ التّفكير بدون ذاكرة تراكمية يستحيل في حق

الإنسان، وقد جاءت الذاكرة في اللغة عند ابن منظور مرتبطة بالفعل ذَكَرَ وهي مؤنث لكلمة ذَاكِرٌ والذِّكْرُ: جري الشيء على لسانك... والذِّكْرُ والذِّكْرَى نقيض النسيان .

واستذكر الرجل: ربط في إصبعه خيطا يذكره حاجته.

والتَّذَكَّرَ : تذكر ما نسيه ... ورجل ذَكَّيرٌ : جيد الذاكرة والحفظ¹ .

أما في القرآن الكريم فقد ورد لفظ الذاكرة بعدة صيغ كقوله تعالى: "وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ"².

وقوله تعالى: "وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ"³ يكاد تتطابق الدلالة اللغوية لمفهوم الذاكرة، فهي تتفق على انتظامها في سياق عملية عقلية مرتبطة بوعي واستحضار لمفاهيم ومعلومات من الذاكرة، وقد ترتبط كما جاء في الخطاب القرآني بالذكر أي التلّفظ بكلمات وألفاظ مخصوصة على سبيل التّعبد.

¹ -ينظر، ابن منظور، لسان العرب، مادة(ذ،ك،ر) ص308-310.

² - سورة الأحزاب، الآية:35.

³ -سورة القمر، الآية:15.

بالعودة إلى المفهوم الاصطلاحي فهي: التفكير في الذاكرة ودورها المعرفي الذي كان موعلا في القدم حيث نجد أفلاطون وأرسطو يذهبون إلى أن وظيفة الذاكرة والتذكر للوصول إلى المعرفة وبالتالي إلى الحقيقة، حيث أنّ أرسطو انطلق من المادّة المحسوسة وأسس نظرياته عليها، حيث طرح مسألة الذاكرة وعلاقتها بالماضي " حيث يرى أنّها ترتبط بالمستقبل، ولكننا لا نستطيع التّكلم عن الذاكرة بمعزل عن الزمن، فتحليل عملية الذاكرة يتقاطع حكما مع تحليل الزمن، لذا فإنّ كلّ تذكّر يفترض وجود الزّمن"¹

كما نجد بول ريكور يبني مفهومه حول الذاكرة على سؤالين محوريين: ماذا تتذكّر؟ ومن تتذكّر؟ كما يربطها بالتّاريخ من جهة وبالنسيان من جهة مقابلة، حيث يرى أنّ الذاكرة تتغيّر بالتّاريخ المكتوب وينتقل بعدها إلى وجوب التذكر، لاسيما عندما تحاصر الذاكرة بخطط خبيثة تراهن على النسيان ويتأكد الأمر في حالة

¹ - جمال شحيد، الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2011، ص53.

المنتصر الذي يحاول أن يطمس ذاكرة المغلوب، أي يفرض النسيان على ذاكرته"¹.

بناء على ما سبق فإنّ الذاكرة هي الحجر الأساس والمادّة الأولية للتاريخ، والتاريخ بدوره يأتي ليغذي الذاكرة أمّا من الناحية الاجتماعية فإنّ الذاكرة " هي العنصر الوحيد الأكثر قوة في خلق هذه التقاليد والحفاظ عليها كان دائما هو الذاكرة على جميع المستويات: انطلاقا من الفردي حتى الثقافي"²، ويقصد بالذاكرة أيضا " الوظيفة التي بواسطتها يمكن إحياء أو إعادة الخبرة الماضية مع إدراك الفرد أن الخبرة الحاضرة ما هي إلا إحياء للخبرة السابقة"³، حيث أن الأحداث التي يمر بها الإنسان في حاضره تذكّره وتدفعه لتذكر ماضيه.

¹ - بول ريكور، الذاكرة والتاريخ والنسيان، تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2009، 1، ص567.

² - فيصل حصيد، اللغة والهوية...جدل الثابت والمتغير، ضمن كتاب السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد، ص206.

³ - محمد زيفور، حقول علم النفس الفيزيولوجية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص162.

أمّا على المستوى الشخصي فالذاكرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بهوية الإنسان الشخصية، فإنسانٌ دون ذاكرة ودون ماضٍ هو إنسان معدوم الهوية" إن الإحساس بالهوية الشخصية الذي يمتلكه كل واحد منّا هو إحساس بالاستمرارية عبر الزمن، وهو لا يمكن امتلاكه دون الذاكرة بالمعنى التام لكلمة التذكر، فلو كانت الذاكرة ببساطة مسألة تعلم دون نسيان رغم أنّها يمكن أن تتضمن استمرارية مادية لما حدثتنا بالضرورة عنها"¹

- أشكال الذاكرة:

يقصد بها العمليات المتعددة التي تركز عليها عملية التذكر وتنحصر في ثلاث مسائل أساسية يعتمدها علماء النفس لقياس الذاكرة:

1- التّعرف يمكن اعتبار التعرف شكلاً من أشكال القدرة على التمييز بين الأشياء التي سبق أن مرّت بخبرتنا أو التي تعلّمناها وبين الأشياء الجديدة " ويحدث هذا النوع عند رؤية الفرد لخبيرة سابقة فيتعرف

¹ - المرجع نفسه، ص 168.

عليها وتمثل عملية تمييز تلك الأشياء التي سبق للفرد أن رآها أو تعلّمها ، والتعرف هو ما يحدث في حياتنا اليومية عندما نرى شخصا ما يبدو مألوفاً ولكننا لا نستطيع ولا يمكننا أن نتذكّر اسمه¹.

ب- الاسترجاع: وهو أكثر تعقيداً من التعرف، باعتبار أنه " قدرة المرء على استدعاء أو إعادة مادة سبق تعلمها أو الاحتفاظ بها في ذاكرته، ويكون الاستدعاء بإعادة القيام بعمل أو السلوك المتذكر بنفس الطريقة التي كان قد تعلّم بها"²، فالاسترجاع هو استدعاء فكرة معينة سبق أن مرت بتجربتنا، وقد تكون هذه الفكرة مادة تعلمناها وبقيت راسخة في ذاكرتنا.

2- الرواية وثنائية التاريخ والذاكرة:

¹ - جابر ناصر الدين، محاضرات في علم النفس الفيزيولوجي، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2003/2004، ص58.

² - جودت بن الأحمر، المدخل إلى علم النفس، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار العلمية الدولية، عمان ط1، 2002، ص125.

تجدر الإشارة إلى أن هناك فرق بين الذاكرة التي هي القدرة على استرجاع ما حدث في الماضي ومنها الرجوع إليها وتوظيفها في الحاضر، ولأنّ خطاب الذاكرة خطاب انتقائي وعاطفي في غالب الأحيان فهم قابل للترفيف أكثر من غيره من الخطابات، وبمقارنة خطاب الذاكرة مع التّاريخ الذي يبني على الإنصاف والموضوعية والالتّكاء على المنهج العلمي والأحداث الموثّقة، وباعتبار هذه المفارقة بين الخطابين فإنه يمكننا القول بأن لكلّ فرد ذاكرة خاصّة بل ولكل زمرة وطائفة اجتماعية ذاكرة خاصّة بها.

وعليه فالذاكرة متعدّدة بتعدّد المجموعات الحاملة لخطاباتها، إنّما التّاريخ هو ملكية جماعية، وكما هو شائع فإن الأعمال الأدبية التي تتركز على التّاريخ في متونها فإنّها تركز على الذاكرة، وهذا ما يجعل للأدب تميّزا واضح المعالم، إذ يجعله يتعارض مع الكتابة الرّسمية للتّاريخ ومع الحس المشترك بين النّاس لأنه يتناول الحقائق المسكوت عنها، وقد يقوم بتصنيف مرحلة تاريخية من مراحل المجتمع، وبالنّظر إلى تاريخنا فإنّ النقطة المفصلية كانت في ثورة التّحرير والتي أسالت الحبر الكثير في كل الأوقات، والتي خلّدها الكتّاب الجزائريون في

رواياتهم ونخصّ بالذكر " بشير مفتي، عبد الحميد بن هدوقة، الطاهر وطار، واسيني الأعرج وغيرهم كثير...)، هذا الأخير قام بتوظيف الذاكرة والتاريخ في رواية بشكل مكثّف في رواية "الأمير" التي استغلّها لدعوات التقارب والمثاقفة وتقريب المسافات بين ثنائية الأنا والآخر.

كما تذكر رواية " الحبيب السايح" المسماة " كولونيل الزبربر" الذي استحضّر تاريخ منطقة لطالما شغلت مساحة في الذاكرة الجمعية للشعب الجزائري، منطقة لتمركز الثّوار الجزائريين في وجه المستعمر الفرنسي حتى تحوّلت في التسعينيات إلى معقل للإرهاب، كما تُثار في هذه الرواية العديد من الأحداث المضمّنة في خانة المحظور.

ومنه فتوظيف التّاريخ عامة في الأدب وفي الرواية على وجه الخصوص يعتبر أمرا طبيعيا، باعتبار الرواية الحديثة والمعاصرة تقوم على خاصية السرد، وهي في الأصل غوص في الأحداث ماضيها وحاضرها ومتخيلها، وهي كذلك تعبّر عن الهوية الفردية والجماعية، والإيديولوجية التي يتبنّاها الكاتب، لذا فالذاكرة هي مكون لا بدّ من توفّره في عملية السرد باعتبارها وجها يحفظ للذات امتدادها الزمّني مع

الماضي فحسب بول ريكور " ليس أمامنا أفضل من الذاكرة كي نؤكد أن شيئاً قد وقع ، وقبل أن تشكل عنه ذكرى نحفظها ولنقل من الآن أن كتابة التاريخ نفسها لن تنجح في زعزعة الاقتناع، الذي يتعرض للسخرية باستمرار، ولكنه باستمرار يؤكد من جديد، أن المرجع الأخير للذاكرة يبقى مهما كان معنى ماضوية الماضي"¹

إنّ الذاكرة التاريخية حسب المنظور الريكوري هي ذاكرة جماعية بالأساس، إذ يجب على الذاكرة الفردية أن تنسجم مع الذاكرة الجماعية، أي أن تكون ذاكرة مشتركة لذلك نجد لا يقتصر في دراسته على الذاكرة الفردية، بل يتناول بالتحليل الذاكرة الجماعية منطلقاً من أفكار عالم الاجتماع الفرنسي موريس هاليفاكس صاحب كتابي " الذاكرة الجماعية " والإطار الاجتماعي للذاكرة" إذ اعترف بول ريكور بفضل هذا العالم الذي نسب الذاكرة إلى كيان جماعي يسميه المجموعة أو المجتمع، وتتجلى أهمية هذا المفهوم في كونه الركيزة الأساسية لمعرفة التباين القائم بين الذاكرة الجماعية هي صور ذكرى أو

¹ - بول ريكور، الذاكرة، التاريخ، النسيان، مرجع سابق، ص 35.

مجموعة ذكريات واعية أو غير واعية لتجربة معيشة ومشبعة بمحمولة أسطورية قوامها هوية جماعية ذات ارتباط وثيق بالإحساس بالماضي وإرث غير قابل للتصرف فيه، وفي الوقت ذاته سهل الاستعمال وأداة نضال وسلطة، وعلى العكس من ذلك فإن الذاكرة الفردية هي الذاكرة الجماعية لمجموعة من المؤرخين.

3-قنوات اشتغال خطاب الذاكرة في رواية "زوج بغال":

يتضمن الأدب في أعماقه طابع العالمية ، باعتبار الكتابة الأدبية غالبا ما تكون مستقاة من التجربة الإنسانية، وهي التي تكسبها البعد العالمي، لكن يبقى كل أديب منتسب لثقافة معينة تفرض عليه وجها مميزا يمكن تلمس الجانب الإبداعي في عمله من خلالها، تظهر هذه الخصوصية جليا في أدب الشعوب التي كانت في يوم من الأيام مستعمرة، والتي أزادت التخلّص من الرّواسب التي التصقت بالأدب وتلك التبعية للغرب أديبا ونقدا، وكان من أوائل من طرحوا فكرة نبد المركزية الغربية الناقد الفلسطيني إدوارد سعيد فقد

حرّرت هذه التّظيرة من المركزية الأوروبية التي كرّستها الدول الأوروبية من بوابة الاستعمار على وجه الخصوص، ومن التجريد الذي مارسه أصحابها، وخصوصا من الفلاسفة الفرنسيين وأتباعهم الأمريكيين، ففتح الباب أمام خبرات أبناء ما يسمّى ببلدان العالم الثالث، وبخاصّة تلك التي تحررت من الاستعمار، حتى ينظرون بطريقة مختلفة فيما توارثوه من الذاكرة الاستعمارية من صوّر تجسّد التاريخ والذاكرة¹.

يبدو أنّ القضية الأكثر حضورا في رواية "زوج بغال" هي قضية الثّورة والأحداث التاريخيّة المصاحبة لها ومسألة الجوار الجزائري المغربي، والأحداث المصاحبة لكلّ هذا الرّخم من الإشكاليات التي تصنع الحدث وتثير الجدل وسط الشّعبيين المتجاورين، وأوّل ما نفتتح به هنا هو تقديم وجهات نظر متباينة نحو الثّورة الجزائرية ليقوم بعدها بالتركيز على فكرة تفاضل رأيا عن آخر فيما يخصّ تاريخ الثّورة.

تجدر الإشارة إلى أنّ الآراء التي سيوردها الروائي هنا تصدر في معظمها من قبل شخصية مغربية الأصل تترحّل في مدن وولايات

¹ - ينظر، إدوارد سعيد، الاستشراق- المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص 27:28.

الجزائر وفي فترات متباينة (فترة الاستعمار، فترة الثورة التحريرية، فترة ما بعد الاستعمار، ... إلى يومنا هذا)، من بين الآراء التي أوردتها في هذا الصدد ما نجده في المقطع الآتي: " كنت أرى الجميع يتكالب على الثورة التحريرية التي خضناها بشرف، ولم يسلم من همزهم ولمزهم حتى رموزها. وأدرك بوضوح مدى تحسّرهم وتألّمهم على خروج فرنسا من الجزائر صاغرة بعد استنفاد كل محاولاتها الفاشلة في البقاء"¹.

يشير هنا إلى وجود فئة من أبناء الجزائر ألّمهم خروج فرنسا من الأراضي الجزائرية، وذلك لمصالحهم الخاصة، ولمعرفتهم بأنهم سوف يبعدون من مناصبهم الحساسة التي منحتهم إيها فرنسا خلال فترة الاستعمار، باعتبارهم كانوا يوالونها، ويقفون ضدّ أبناء جلدتهم طمعا في عَرَض من الدّنيا زائل، هؤلاء الفئة الحديث عنهم يعتبر مسكوتا عنه، لأنّ معظمهم اندمج في الحياة وسهّلت له فرنسا التّمرّكز في المناصب الحساسة في الجزائر، حتّى بعد خروجها مطرودة ، وهذا ما يؤكده المقطع الذي أوردته مواليا للمقطع الأول " لم أرتح أبدا لالتحاق الضّبّاط الذين كانوا في الجيش الفرنسي بجيش التحرير الوطني إبّان

¹ - بومدين بلكبير، زوج بغال، مصدر سابق، ص 24.

الثورة، كما لم أطمئن لتبوئهم مناصب سامية في الجيش الشعبي الوطني بعد الاستقلال. فلطالما كنت متوجّساً منهم، ولم أكن مقتنعا على الإطلاق بأنّ الذي حمل السلاح في وجه إخوانه المجاهدين، سيأتي يوم ويكون بجانبهم في الكفاح!.

كما كنت أرى خطر وصول هؤلاء إلى قيادة الجيش ثمّ إلى السيطرة فيما بعد على دواليب الحكم في البلد!.

وهو ما حدث فعلا!."1، الملاحظ أنّ وجهة رأي شخصية عبد القادر الركراكي لم تكن مبنية على أسس علمية ومنطقية كافية وأن هذه القضية لم تُطرح بكلّ سياقاتها التاريخية التي تمكّنا من الحكم على تفاصيلها سواء بالسلب أو بالإيجاب، والأمر في هذا المجال متروك إلى أهل الاختصاص.

يعود الروائي ليربط خطاب الثورة والتاريخ بالحاضر، وذلك بمقارنة شباب تلك الفترة بشباب اليوم "...ذاك الصّباح كنت أذرع الغرف بحثا عن صورة جمعتني بعبد المجيد بن منصور ونحن نرتدي

1 - المصدر نفسه، ص24.

قشابيتي صوف وعلى ظهرينا بندقيتان بارزتان، كُنَّا حينها في أوج شبابنا، رمينا كل شيء خلف ظهورنا استجابة لنداء الواجب.

كُنَّا مختلفين تماما عن شباب اليوم، هؤلاء الشَّبَاب الذين لا همّ لهم إلا إشباع ملذّاتهم والجري خلف شهواتهم! والذين لا يصغون لنصائحنا نحن جيل التّحرير، متوهمين أنّهم أذكى منّا...نحن الذين عرّضنا حياتنا للموت لأجل أن ينعموا هم بخيرات الاستقلال¹، يقودنا هذا الحديث عن جيل الثّورة وجيل شباب الاستقلال إلى تجاذبات لها وجودها الفعلي في الواقع الجزائري، فلطالما سمعنا نقاشات من هذا القبيل بين الشَّبَاب وبين الكهول والشيوخ من جيل الثّورة، حيث نجد أنّ كلّ طرف من الطّرفين يحمّل مسؤولية ركود البلاد في شتّى الميادين للطّرف الآخر، وحقّة جيل الثّورة أنّهم أتوا بالاستقلال وطرّدوا المستعمر، وحقّة الشَّبَاب أنّ المناصب ومصادر صنع القرار في البلاد بأيدي الكهول من جيلهم، في حين القضية التي يفترض أنّ تُطرح هي كيفية الاستفادة من الطّرفين؛ أيّ خبرة الجيل القديم وتجربته، وطاقّة الشَّبَاب وقدرتهم على مواكبة تطوّرات العصر.

¹ - المصدر نفسه، ص 26.

ومن أمثلة التّزوير الذي شهدته فترة ما بعد الاستقلال تلك الحصة التّلفزيونية التي روى أحداثها على لسان الشخصية المحورية في الرواية **عبد القادر الرّكراكي**: " حدّقت في التّلفاز شابكا يدي على صدري من شدّة ذهولي بما كانت تعرضه تلك القناة العمومية. قرأت اسم ضيفة اللّقاء المكتوب وسط أسفل الشّاشة(فريال بن شيكو فيرون).

المرأة كانت تستحضر بطولات جدّها الباشاغا بن قانة بكلّ فخر واعتزاز ومنشّط اللّقاء يتابع كلامها باهتمام ظاهر، دون مقاطعتها، مُبديا موافقته بحركة رأسه.

غير أنّي في المقابل ظللت مشدوها، لا أعرف أأصدق ما أرى وأسمع أم أكذب!.

هل أنا في حلم أم أهلوس؟.

.... لقد قطع هذا الرّجل آذان ورؤوس مئات الجزائريين،

وقدّمها كعربون ولاء ووفاء لأحد جنرالات فرنسا، كما قال سعيد صارخا، وهو فاغرا فاه، غير مصدق.

- هذا شخص سيء الصّيت كان عميلا للإدارة الاستعمارية.¹، يصرّح مباشرة هنا بالتزوير العليّ أمام أعين الناس لأفراد قاموا بخراب الثورة الجزائرية، وفي نهاية المطاف يصوّرهم الإعلام على أنّهم أبطال وثوار، وينعم أبناءهم برغد العيش، بينما تجد المجاهدين الحقيقيين طيّ النسيان، ولا أحد يشيد بهم أو يتذكّرهم، وأبناءؤهم يعيشون في مناطق نائية تحت خطّ الفقر، والمقصود هو الطّعن في الإعلام الموجّه من قبل السّلطة، والذي هو من يسيطر على السّاحة الإعلامية في الجزائر.

وهذا التّصوير للوضع وللتاريخ المتعلّق بالحاضر أي استنكار شخصيات وتبييض صورة من كان يعمل ضدّ الثورة يندرج ضمن تصارع الإيديولوجية الماركسية مع التّيّار الديني السّلفي الذي ميز الجزائر، وهما تياران متناقضان ولّدا صراعا للمرحلتين وهما:

-مرحلة العمل التّحرري، وما رافقه من بطولات وخيانات في صفوف الثورة التحريرية، والأخرى هي فترة البناء الذي تبنّى التّوجه الاشتراكي والإيديولوجيا الماركسية.

¹ - المرجع السابق، ص 28.

-مرحلة التعددية والعمل الحزبي المتنوع، وهنا انفتحت قليلا الكتابة على نقد السلطة في إطار مرجعية ومركزية البطل في جنس الرواية، مستثمرة في الفكر المتحرر من قيود المجتمع والدين، وبين الفكر المتشبع بالدين والثقافة المحافظة¹، عودة إلى أحداث الرواية التي تجاوزت هذين البعدين في بعض تفاصيلها بطرحها للأزمات في صورة بعيدة عن الترفل لأي طرف من الأطراف، وبنظرة عقلانية توحى بوعي وفهم للوضع المحلي والدولي، يطرح لنا أزمة الجارين (الجزائر، والمغرب)، وهذا من خلال سرد أحداث حقيقية تحت جلباب شخصيات تخيلية، فقد أدرج ضمن رواية "زوج بغال" أحداث حرب الزّمال، الثورة التحريرية الجزائرية، ترحيل المغاربة من الجزائر، وما خلفت هذه الأحداث؛ بغض النظر عن أسبابها الحقيقية ودوافعها.

فنحن بصدد مناقشة نتائجها وفق طرح الروائي ومقاصده سواء المصريح بها أو المتوارية خلف أنساق مختلفة المشارب، " أعرف إنني بعيد كل البعد عن هذا القرار، فأنا لم أجنل بأغلى ما أملك، فقد

¹ - ينظر، علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية بالسلطة السياسية، مرجع سابق، ص174-175.

خاطرت بحياتي، ورفعت السلاح من أجل تحرير هذا البلد. لكن لما رأيت بأمّ عيني تشردّ وتشتّت الكثير من العائلات في تلمسان وغيرها من مدن الغرب الجزائري، الزوج الجزائري تُطرد زوجته المغربية والزوجة الجزائرية يُطرد زوجها المغربي، ومصير الأولاد المجهول، إمّا يبقون كلّهم في الجزائر مع أحد الوالدين، أو يغادرون جميعا نحو المغرب مع الويّ الآخِر"1.

يغلب على تناول الرّوائي لمسألة التّرحيل الذي طال العائلات المغربية من الأراضي الجزائرية الطّرح الإنساني، فهو يصرّح قبل تطرّقه لهذه القضية بأنّه ليس معنيا بمناقشة القرار السّياسي الذي له أبعاده السّياسية والاستراتيجية، التي من غير المجدي الدّخول في تفاصيلها ولم تكن للرّوائي الرّغبة في مناقشتها على اعتبار أنّ هدف الرواية هو تجاوز الأزمات وتغليب صوت العقل، فهو عندما يجعل المغربي يضحّي بحياته من أجل الجزائر واستقلالها، يدعّم فكرة البعد المغاربي للشّعبيين، والتّقارب الكبير الذي يحكمهما خاصة في العادات والتّقاليد، وفي الأكلات وطريقة إحياء الحفلات، والفنّ الغنائي

1 - بومدين بلكبير، زوج بغال، مصدر سابق، ص 141-142.

المشترك بين مدن (سيدي بلعبّاس، مغنية، وهران، وجدة، بركان، السّعيدية...) كلّ هذه المدن لها نفس التّقاليد ويشتركون في اللّهجة المستعملة والأكثر من ذلك فهم يتزوّجون من بعضهم البعض إلى درجة التّحام الشّعبيين عن طريق العلاقات الأسرية والروابط العائلية، كانت نتائج هذه الأحداث متمثلة في "...ينقسمون بين والديهم، نصف في الجزائر والنّصف الثّاني بالمغرب، وتضيع بذلك أسر وعائلات بأكملها. والأمر ذاته ينطبق على الجزائريين في المغرب وباتت أراضي كلا البلدين على اتّساعها وشساعتها أضيق من خرم الإبرة.

ما كان عليّ إلا الرّحيل من أقصى الغرب إلى أقصى الشّرق حتى أبقى بعيدا عن تداعيات هذا الصّراع، وأبدأ حياة جديدة هناك، لا أحد يعرف هويتي. وقد اقترح عليّ سي قدّور عنابة بحكم أنّه ينحدر من منطقة الدّرعان التّابعة آنذاك لمدينة عنابة¹، يجعل الروائي هنا نتائج الصّراع السّياسي بين البلدين الجارين يتقاسمها مناصفة الشّعبيين الشّقيقين بنفس القدر من الوجد والألم إثر فقدان الجزء الآخر

¹ - المصدر نفسه ص 142.

من العائلة، فقد تشردت عائلات بالفعل، وفقدت أسرتهما وأصبح التّواصل بين العائلة وأقاربها من المستحيل بسبب غلق الحدود بين البلدين، وهو ما جعل الرّواي يهرب من أقصى غرب الجزائر (تلمسان) إلى أقصى شرقها (عنابة) لعلّه ينسى الألم الذي لحقه جرّاء تشتت عائلته وعائلات أبناء وطنه، وبرحيله لعنابة سيقوم بطرح قضايا من نوع آخر ذات بعد إصلاحي اجتماعي تارة، وذات بعد إنسانيّ تارة أخرى.

- خاتمة.

يمكن أن نخلص في ختام هذه الورقة البحثية إلى أن خطاب الرواية الجزائرية لم يستطع التّخلّص من الاتّكاء على التّاريخ والذّكرة، وهذا مرجعه إلى طبيعة الفرد الجزائري، والخطابات التي يفضّل استهلاكها، فهو إنسان يميل إلى تغليب العاطفة، ويعيش رهين أمجاد وبطولات معظمها تكتسي طابع الضبابية أحيانا والتزييف أحيانا أخرى، وكانت هذه الجزئية منطلقا للعديد من الروايات التي حاولت إعادة طرح الحقائق التّاريخية في سياقات جديدة ليتمكّن القارئ من النّظر إليها وفق منظور جديد، وزاوية نظر جديدة تمكّنه من رؤية أنساق كانت

مغيبة عنه لأسباب تاريخية وثقافية حدّدتها الفترة الزمنية التي صاحبتهما، وقد كان طرح بومدين بلكبير في هذه الرواية يسير ضمن اتجاهين اثنين:

- الاتجاه الأول: ناقش قضية التاريخ والذاكرة المرتبطة بالثورة الجزائرية، وكشف بعض الحقائق المستورة خلف الشّعارات، والخطب الرنانة، وفضح بعض التزييف الذي طال شخصيات وأحداث، كلّ هذا دون المساس بقداسة الثورة الجزائرية، وأتمّ كانت ملهمة حتى للشعوب العالمية، لكنّه أراد أن يهزّ بعض المفاهيم التي تضرّ أكثر مما تنفع بالنسبة للتفكير الجماعي للشعب الجزائري.

- الاتجاه الثاني: بثّ من خلاله قضية الأزمة الجزائرية المغربية بطريقة بعيدة عن التناول السياسي السائد وابتعد عن تحميل أحد الطرفين مسؤولية ما حدث ويحدث، لكنّه تناول القضية ببعد إنساني، إصلاحي يخاطب من خلاله أصحاب العقول المتزنة التي تتجاوز الانتماء المحدود (الوطن والدولة) إلى الانتماء الإقليمي أو حتى المتوسطي.

قائمة المصادر والمراجع:

أ: المصادر:

1. -القرآن الكريم.
2. بومدين بلكبير، زوج بغال، منشورات ضفاف، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2018.

ب- المراجع:

1. ابن منظور، لسان العرب، مادة(ذ،ك،ر) ص308-310.
2. جمال شحيد، الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2011،

3. بول ريكور، الذاكرة والتاريخ والنسيان، تر: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط 2009، 1،
4. فيصل حصيد، اللغة والهوية... جدل الثابت والمتغير، ضمن كتاب السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة خنشلة، الجزائر، مجلد 1، العدد 2، 2016/06/12.
5. محمد زيفور، حقول علم النفس الفيزيولوجية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2002.
6. جابر ناصر الدين، محاضرات في علم النفس الفيزيولوجي، قسم علم النفس وعلوم التربية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2004/2003.
7. جودت بن الأحمر، المدخل إلى علم النفس، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار العلمية الدولية، عمان ط 1، 2002.
8. إدوارد سعيد، الاستشراق - المفاهيم الغربية للشرق، تر: محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2006.

9. علال سنقوقة، المتخيل والسلطة في علاقة الرواية الجزائرية
بالسلطة السياسية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،
.2000.